الفصل العاشر

اللاعنف

هذا العنف الماثل أمامنا اليوم، لم يوجد بالصدفة، بل أنتجته صناعة متقنة، غيبت لغة الحوار وعززت مرتكزات الجهل. وعند تغييب لغة الحوار واعتماد التصلب في الآراء والمواقف، وغياب المحبة والتسامح، حتماً سينتشر العنف المدمر والتطرف الأعمى البعيد عن المنطق.

وما أكثر الذين أخذتهم الأنانية فأوقعوا الناس في تباغض وحروب. فأصحاب الآراء المتصلبة لا تهمهم الفتنة إذا وقعت، ولهذا يستغلهم الغزاة والمستعمرون، فالجهل بالنسبة للمستعمر سلاح أقوى من كل الأسلحة. وما أكثر الذين يمقتون القسوة والعنف ولكنهم أصبحوا اليوم عاجزين محبطين أمام هذا الجنون القاتل. وهل يعقل أن يكون القصاص من نصيب من يقول لا للظلم لا للقتل! أسس غاندي ما عرف في عالم السياسة ب (المقاومة السلمية) أو فلسفة اللاعنف (الساتياغراها)، وتعني الحقيقة والثبات ، ويا ليت هذه الفلسفة أو بعض الفلسفات الشبيهة بها تحل محل السلاح والقتل والتخريب، غاندي يعتبر الكياسة هي أصعب جزء من أجزاء اللاعنف، والكياسة لا تعني مجرد اللطف الخارجي في الحديث المعد لمناسبة من المناسبات، فالكياسة هي اللطف السليقي والرغبة في الإحسان إلى الخصم. أما الوقاحة فهي تفسد مبدأ اللاعنف يقول غاندي: "أن الرجل وعمله شيئان متميزان. ففي حين يتحتم أن يقترن العمل الصالح بالاستحسان والعمل الطالح بالاستهجان، فإن فاعل العمل، سواء كان خيراً أم شراً، يستحق دائماً الاحترام أو الشفقة تبعاً لطبيعة

الحالة. إن قاعدة ابغضوا الإثم لا الآثم نادراً ما تُطبق على الرغم من سهولة فهمها. وهذا هو السبب الذي من أجله ينتشر سم البغض في العالم. هذه "الاهيمسا" هي أساس البحث عن الحقيقة. وأنا أدرك كل يوم أن البحث يكون على غير طائل ما لم يتخذ من الاهيمسا أساساً له. إن من السديد أن يقاوم المرء نظاما ويهاجمه، ولكن مقاومة واضعه ومهاجمته توازيان مقاومة المرء نفسه ومهاجمته إياها. ذلك أننا كلنا قد طُلينا بالفرشاة نفسها، وأننا كلنا أولاد خالق واحد، ومن هنا فإن القوى الإلهية التي تعمر نفوسنا لا نهائية. ولأن تمتهن كائناً بشرياً واحداً يعني أن تمتهن هذه القوى الإلهية، وبذلك لا تؤذي ذلك الكائن فحسب، بل تؤذي معه العالم كله. "[194] غاندي لم تمنعه عقيدته الهندوسية من فهم ومحبة الأديان الأخرى – ولكن متعصب هندوسي كان أداة لقتل هذا الإنسان المسالم والمتواضع والتوفيقي - فالمرء يستطيع أن ينمي التعادلية بين الأديان المختلفة ويستطيع أن يحافظ عليها، وعن هذا يقول غاندي: " لقد تعاونت مجموعة من الأحداث في حياتي على إقامة صلات وثيقة بيني وبين رجال من أديان مختلفة، وجاليات مختلفة، وإن في تجربتي معهم جميعاً ما يجيز لي النص على أني لم أعرف أيما تمييز بين الأنسباء والأغراب، وأبناء الوطن والأجانب والبيض والملونين، والهندوس والهنود من أهل الأديان الأخرى سواء كانوا مسلمين أم بارسيين أم نصارى أم يهوداً. وفي استطاعتي أن أقول أن فؤادي كان عاجزاً، دائماً عن إجراء مثل هذا التمييز. ولست أستطيع أن أعتز بذلك كفضيلة خاصة، لأنها شيء في فطرتي ذاتها وليس ثمرة لأي جهد شخصي في حين أني في مجال "الاهيمسا" وال "آباريغراها" (اللاتملك)وغيرها من الفضائل الرئيسة، أعي أكمل الوعي

[194] قصة تجاربي مع الحقيقة، ص 321.

نضالاً موصولاً من أجل تنميتها." [195] تأثر غاندي بعدد من المؤلفات منها "نشيد الطوباوي" و"موعظة الجبل" في الإنجيل، وتأثر بكتاب الفيلسوف راسكين "حتى الرجل الأخير"، وكتاب الأديب الروسي تولستوي " الخلاص في أنفسكم"، وكتاب الشاعر الأمريكي هنري ديغو تورو "العصيان المدني"، وكذلك تأثر بالبراهماتية وهي عبارة عن فلسفة تمكن الإنسان من التحكم بأهوائه وحواسه بواسطة الزهد والتنسك، وعن طريق الطعام واللباس والصيام والطهارة والصلاة والخشوع والتزام الصمت يوم الاثنين من كل أسبوع. وتعرف غاندي بالصدفة على الفلسفة الثيوصوفية، وقرأ "الجيتا" فتركت انطباعاً عميقة في عقله، وخاصةً هذه الأبيات:

" إذا فكر المرء في أشياء الحس،

فهناك تنبثق الاستمالة. ومن الاستمالة تنشأ الرغبة،

وتتأجج الرغبة فتصبح شهوة، والشهوة تولد الطيش.

ثم أن الذاكرة – وقد خُدعت-

تتخلى عن الهدف النبيل، وتخرب العقل،

حتى يهلك الهدف، والعقل، والإنسان جميعاً." [196]

غاندي يقول بأن التضحية هي أسمى أشكال الدين، ولا يمكنه إتباع الذات الإلهية إلا إذا تخلى عن كل ما يملك. لقد وحد بين تعاليم "الجيتا" الخاصة باللاتملك، وبين "الموعظة على الجبل" في العهد الجديد فقال: " العهد الجديد" ترك في نفسي انطباعاً مختلفاً، وبخاصة "الموعظة على الجبل" التي نفذت إلى قلبي مباشرةً. وقارنتها "بالجيتا". أن هذه الآيات: " وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً. ومن أراد

---

[195] المصدر نفسه، ص 322.

[196] قصة تجاربي مع الحقيقة،ص، 88.

أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً" أقول إن هذه الآيات أبهجتني إبهاجاً لا حد له، وذكرتني بقول شامال بهات: "مقابل قدح ماء قدم وجبة طعام سخية". [197] وتأثر غاندي أيضاً بسيرة النبي محمد (ص) فقال: " بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول محمد أجد نفسي بحاجة أكثر إلى التعرف على حياته العظيمة. أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر... لقد أصبحت مقتنعاً كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع رقته وصدقه في الوعود وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه واتباعه وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهدت الطريق وتخطت المصاعب وليس السيف." "لقد كُتب الكثير حول حقيقة أن الهند التي تضم مسلمين أكثر من أي بلد به أغلبية مسلمة في العالم تقريباً لم تنتج إلا عدداً قليلاً من أبنائها الذين تربوا فيها من الإرهابيين الذين يعملون باسم الإسلام، لكن بعض الفضل لا بد أن نرجعه أيضاً إلى طبيعة السياسات الديمقراطية الهندية، وإلى القبول الواسع في الهند لفكر بطلها المهاتما غاندي، وهي أن هناك الكثير من الهويات غير العرقية الدينية مهمة أيضاً بالنسبة إلى فهم الإنسان لذاته وللعلاقات بين مواطنين لهم خلفيات متنوعة داخل البلاد." [198]

" وفي الغالب لا ينعش العمل الجماعي غير العنيف قدرة الأفراد على التغلب على مخاوفهم ويقوي شجاعتهم للعمل على نحو إبداعي وتعاوني وحسب ، بل ثمة أوقات يُجرد فيها الاحتجاج غير العنيف السلطة العنيفة من سلاحها تجريداً فعلياً. إن النصر المثير لجماعة غرين بيس Greenpeace ضد أضخم شركة

[197] قصة تجاربي مع الحقيقة ص 89.

[198] الهوية والعنف، ص، 169.

نفطية متعددة الجنسيات في العالم، رويال دَتش شل Royal Dutch Shell في بحر الشمال من صيف 1995 عندما احتل الناشطون منصة برنت سبار Brent Spar التي شرب الزمان عليها وأكل لمنعها من الغرق، مثال لافت على العمل الجماعي الذي سدد خطاه لا عنف سام. كذلك الأمر بالنسبة إلى الجسارة المثلى لشخصيات شعبية مثل المهاتما غاندي ومارتن لوثر كينغ، أو العمل الجسور لناشطي المجتمع المدني مثل أونغ سان سو كي Aung San Sun Kyi الذين تحدوا طوقاً فرضه الجنود البورميون المدججون بالسلاح بالسير نحوهم سيراً بطيئاً، متحدين إياهم تحدياً صامتاً أن يرفضوا الأوامر، التي صرخ بها ثلاث مرات أن يطلقوا النار عليهم، مرغمين إياهم على الإشاحة بنظرهم إشاحة مخزية، وتنكيس بنادقهم، والسماح لهم بعبور الطوق عبوراً مشرفاً وسط ذهول مؤيديهم الواقفين على جنبات الطوق. تُستخدم فصول الشجاعة هذه بوصفها تذكيراً أساسياً بمسألتين: أولهما، العنف بلية الديمقراطية لأن العنف نكران مقصود للوجود البدني والذهني لفرد أو لجماعة من المدنيين في العالم وحسب؛ وثانيهما، يمكن للعنف أن يولد العنف غالباً، فالعنف حصان جامح يمكن للذين يمتطونه أن يُطرحوا أرضاً، ويتأذوا أذية بالغة، ويسحبوا آخرين في أعقابهم نحو حتفهم. وغالباً ما يقلل منتقدو النزعة السلمية من أهمية الحقيقة القائلة إن من يلجؤون إلى العنف هم غالباً من ضحاياه إلى حد أن العنف يقضي على الروح الديمقراطية الكامنة عند كل من المعتدي والضحية."[199] وعلى حد قول نيتشة "يتعين على من يُواجه وحوشاً الانتباه أن لا يتحول إلى وحش مع مرور الأيام."ومن المستحيل أن يبقى الإنسان الذي يواجه الموت أو الإذلال والنبذ أن يبقى مسالماً؛ فالعنف في هذه الحالة السبيل الوحيد لإنقاذ الذات. "ففي الظروف التي يسفر فيها نبذ العنف أو

[199] العنف والديمقراطية ص 169.

التردد في استخدامه عن إبادة ضحاياه على وجه الخصوص يؤازر اللاعنف المعتدي، وهذا ما علل اعتبار العنف معقولاً وأفضل بكثير من الجبن. ولكن في الواقع، ثمة أناس فوضويون نزاعون إلى الوقاحة، وإرهابيون زارعون للقنابل، ومتعصبون، وأعضاء مختلون سوف يسخرون من الاقتراح القائل بإمكانية وجوب خضوع العنف لحديث عقلاني أو اعتبارات إجراء ديمقراطي؛ يعتقدون أن الحق والضرورة في صفهم، فلو قدر لهم التفكير في المسألة، سوف يخلصون إلى أن هوسهم بالعنف كوني لدرجة أنه مبرر تبريراً مطلقاً، وقابل للتطبيق في أي وسط معقول. ونظراً لعدم اقتناعهم بالحديث عن التعددية والمجتمع المدني والديمقراطية، ويريدون الضغط على الزناد لقتل الآخرين أو إعاقتهم ليس إلا." [200] مبدأ اللاعنف يمكن تحقيقه إذا كان في المواجهة من يريد أن يفكر أو أن يحاور؛ ولكن هناك أوقاتاً يجب أن يلجأ فيها ذوو الأخلاق إلى القوة كي يحموا أنفسهم والعالم من أن يستعبدهم أولئك الذين يرون أن القوة هي حجتهم الوحيدة والضمان الوحيد الذي يتفقون عليه. **كنفوشيوس** كان يعتبر أن القوة هي الملجأ الأخير، والأمر الذي يجب أن يكون تابعاً دائماً، لا من الناحية الفكرية فحسب بل كحقيقة ثابتة لسلطة العدالة قال:" إذا ما أحسست بقلبي أنني مخطئ وجب علي أن أقف خائفاً حتى لو كان خصمي أقل الناس قوة، ولكنني لو أحسست بقلبي أنني على صواب فسأسير قدماً حتى لو كنت سأواجه آلافا أو عشرات الآلاف." وكان يؤمن بأن أي جيش لا يمكن أن يحارب حرباً فعالة ما لم يعرف حتى جنوده العاديون لماذا هم يحاربون، وما لم يكونوا مقتنعين بعدالة قضيتهم. [201]

---

[200] العنف والديمقراطية ص 173- 172.
[201] الفكر الصيني ص 45.

دعاة اللاعنف يُضطهدون

" **برتراند راسل** يتساءل بمرارة قائلاً: ألن يكون عالم من البلابل والقبرات والأيائل أفضل من عالمنا البشري القائم على القسوة والظلم والحرب؟ . راسل الفيلسوف البريطاني المدافع العنيد عن الحرية والمعارض للحروب بكل أشكالها حوكم في عام 1916 بسبب معارضته للحرب العالمية الأولى، ودعوته للسلام، فَغُرِم وفُصل من كلية ترينيتي في جامعة كامبردج، وفي عام 1918 أُخضع للمحاكمة مرة أخرى بتهمة التشهير بالحكومة البريطانية والجيش الأمريكي، فكانت النتيجة سجنه لمدة ستة أشهر، وآخر مرة دخل السجن كان عام 1961 بتهمة العصيان المدني، حين كان يتزعم الحملة التي تدعو إلى نزع السلاح النووي من جميع أنحاء العالم. ويُعتبر راسل أحد أعلام الفكر الفلسفي الغربي المعاصرين. حصل على جائزة نوبل عام 1952 تقديراً لإنتاجه العظيم المتنوع، واعترافاً لما قام به دائماً من دفاع عن الإنسانية وذود عن الحرية الفكرية. وأن يُعامل رجل بهذه الأهمية بالسجن والطرد والملاحقة أمر يثير الاستهجان ويترك علامة استفهام كبيرة.

يقول **راسل** في كتابه العلم والدين: إن تهديد الحرية الفكرية هو أكبر في أيامنا هذه مما كان عليه في أي وقت منذ عام 1660 إلا أنه لا يأتي الآن من الكنائس المسيحية، إنه يأتي من الحكومات التي بسبب خطر الفوضى والتفكك الحديثين، ورثت صفة القداسة التي كانت تنتمي إلى السلطات الكهنوتية. إن من واجب رجال العلم وجميع من يقدرون المعرفة العلمية أن يحتجوا ضد الأشكال الجديدة للاضطهاد بدلاً من أن يهنئوا أنفسهم على تآكل الأشياء القديمة. ويجب ألا يقلل هذا الاحتجاج أي حب للعقائد الخاصة التي يدعمها الاضطهاد. إن حب الشيوعية يجب ألا يجعلنا نمتنع عن معرفة

الخطأ في روسيا، أو إدراك أن النظام الذي لا يسمح بنقد عقيدته أن يصبح عائقاً أمام اكتشاف المعرفة الجديدة، ويجب ألا تقودنا كراهية الشيوعية والاشتراكية إلى التغاضي عن الأعمال البربرية التي مورست من أجل قمعها في ألمانيا. أما الدور السلبي للأيديولوجيا في العلم فقد دفع ثمنه علماء بارزون في مختلف المجالات العلمية وفي مختلف الأزمان.

وعلى سبيل المثال أيضاً: **محمد عبده** قال: بوجوب تحكيم العقل وإعلان الحرب على كل أنواع البدع والخرافات، وحذر من مخاطر الاستعمار، وأنظمة الحكم الفاسدة، محمد عبده صاحب منهج فلسفي جمع بين العقل والإيمان، وأنشأ جمعية للتقارب بين الأديان المسيحية والإسلام واليهودية، واعتبر أسس المجتمع هي القيم الدينية كالعدل والمساواة والأخلاق، ولكنه عزل من منصبه في الأزهر بسبب مواقفه السياسية.

لافوازيه كان واحداً من المفكرين المبدعين الكبار، وسيظل اسمه مرتبطاً بخلق فروع جديدة في المعارف العلمية. إنه واضع أسس علم الكيمياء الحديث، ولأن الثورة الفرنسية وقفت موقفاً معادياً إزاء ذوي الشأن كلهم، وخاصة ضد المفوضين العامين للجباية، الذين كانت تشملهم كراهية عامة موجهة إلى جميع المؤسسات المالية المرتبطة بالنظام القديم، ولأن لافوازيه كان مديراً لصندوق القطع، وملحقاً في جمعية النقد، ثم مفوضاً في الخزينة، فقد تعرض للسجن أولاً وبعد شهور عديدة قادته المحكمة الثورية إلى المقصلة في الثامن من آذار عام 1794، وهو لم يتجاوز الخمسين من عمره. وحين علم العالِم **لاغرانج** بالنبأ المرعب أطلق صرخته الشهيرة: "لم يستغرق إسقاط هذا الرأس إلا لحظة، ولكن قرناً من الزمن قد لا يكفي لإنجاب مثيل له."[202] وفي عام 1954 قامت الحكومة الأمريكية بإزاحة الحماية الأمنية عن **روبرت**

[202] مجلة عالم الفكر، المجلد 36. ص 245- 246.

أوبنهايمر بسبب الجدال الذي يعود جزء منه إلى تحفظه حول إنتاج سلاح الاندماج النووي (القنبلة الهيدروجينية) ولم تكتفي بهذا بل حاكمت كل من رفض الإدلاء بشهادات ضده، وهذا ما حصل مع الفيزيائي الشهير **دافيد بوم** أستاذ الفيزياء في جامعة كاليفورنيا وأجبر على ترك بلاده." [203] والأمثلة كثيرة على علماء ومفكرين تمت محاكمتهم بسبب آرائهم.

" وأخيراً فإن **يسوع المسيح، وبوذا، وماخافير، ولاو – تسيزي،** و **فرانتسك اسسزسكي** لم يكن لديهم أسلحة، ولا قوى جسدية خارقة، ولا ثراء مادي، ولا أية وسائل دنيوية للتأثير على الملايين، وتحديد المصير التاريخي للأمم والثقافات، وهؤلاء لم يستخدموا الحقد أو الحسد والبخل وما شابه من خصال يتصف بها البشر،وحتى أن أجسادهم لم تكن مبنية على طريقة رافعي الأثقال ومع ذلك فقد تمكنوا وقِلة أخرى من اتباعهم من تغيير وعي وسلوك ملايين البشر البائسين، أعادوا بناء وتشكيل ثقافات كاملة ومنظمات ومؤسسات اجتماعية وحددوا يشكل نهائي مسار تطور التاريخ. ولا يمكن لأي فاتح عظيم أو قائد ثوري أن يُقارن من بعيد بأنصار الحب هؤلاء، من حيث أهمية واستمرارية تلك التغيرات التي أحدثوها." [204]

ما بين التفاؤل والحسرة

ويبقى السؤال المحير عن مستقبل هذا الواقع المرير. هل هناك ما يبعث على الأمل، أم أن مسحة التشاؤم لا بد وأن تبقى طاغية على مستقبل العالم بأسره! ويبقى الشك هو المسيطر، فلا جواب ولا معرفة يمكن أن نحددها. ولكن

[203] مجلة عالم الفكر ، المجلد 36. ص 253.

[204] الفكر السياسي ، العدد 45، ص 181.

هناك أقوال وآراء لعظماء بذلوا كل حياتهم وسخروا طاقاتهم من أجل نور المحبة وإعادة الأمل إلى الإنسان الذي افترست الحروب والطغيان أحلامه، وصعقته في صميم كيانه؛ أقوال قد تبعث فينا بعض المشاعر الطيبة وتخرجنا من ظلمات العنف.

رابندرانات طاغور شاعر هندي نتاجه زاخر بالمحبة والنبل، رسالة تهب لنا الطمأنينة وتنقي نفوسنا من الأحزان والقلق القاتم، لتأخذنا إلى آفاق صافية. طاغور الذي أحب أخاه الإنسان دون إي فارق في المنزلة والدين والنجار. قال:

"إن قلبي لن يجد سبيله نحو من ترافقهم،
بل نحو من لا رفيق لهم، بين الفقير والحقير والضائع."

ترك طاغور رسالة محبة لكل قارئ سيقرأ كلماته بعد غيابه عن هذا العالم، فهو أراد الخير لجميع الأجيال، إرادة لا تنكسر حتى بالموت :

" من أنت أيها القارئ، أنت الذي سوف تقرؤني بعد مائة عام؟
ليس في مكنتي أن أبعث إليك بزهرة واحدة من الإكليل الربيعي،
ولا بشعاع مذهب واحد من تلك السحب هناك،
افتح الأبواب وتأمل في المدى القصي،
واجنِ من حديقتك الزاهرة الذكريات العاطرة الفاعمةَ
من الزهر المصوّح منذ مائة عام،
فقد يكون في ميسورك أن تشعر والسرور يملأ عطفيك،
بالفرحة الحية التي تغنَت ذات صباح ربيعي،
مريقةً صوتها الهنيءَ، عبر مائة عام."

لقد كان يريد أن يبقى جسده نقياً وأفكاره بعيدة عن كل زيف، كان يريد أن يقصي كل الشرور من قلبه، ليصل في آخر المطاف نقياً إلى معبد الرب، هناك حيث تكون المعرفة حرة، والكلمات تنبثق من أغوار الإخلاص، وحيث

لا حواجز بين العالم، وحيث لا يضل العقل النيرُ في الصحراء الموحشة من العادات.

" هذه صلاتي إليك يا مولاي، أضرب جذور ذلك الفقر في قلبي.

هب لي القوة لأتحمل في هينةٍ ويسرٍ، آلامي وأفراحي.

هب لي القوة لأجعل قلبي مثمراً في خدماته.

هب لي القوة لأعمل على ألا أتنكر للفقير، وألا أثني ركبتي أمام السلطان المتحدي.

هب لي القوة لأرقى بفكري بعيداً عن السفاسف اليومية.

هب لي القوة لأضع قوتي في شغف تحت إرادتك."

" حين غادر المحاربون قصر مولاهم، أين أخفوا سلطانهم وأين كانت دروعهم وأسلحتهم؟

إنهم يبدون مساكين لا غبين، تتساقط فوقهم السهام غَدِقةً متداركة، حين غادروا قصر الرب.

وحين عاد المحاربون إلى قصر الرب، أين أخفوا سلطانهم؟

لقد ألقوا السيف، ورموا بالقوس والسهم، كان السلام يظلل جباههم، مخلفين وراءهم ثمار حياتهم، يوم عادوا إلى قصر مولاهم."

" سنموت على إيماننا بأن السلم حق والخير حق وإن الواحد الأحد الخالد حق...

لقد بلونا الشرور والخطايا كل يوم وعرفنا الموت...

تُرى أتذهب هدراً قيمة دماء الشهداء ودموع الأمهات في تراب الأرض، أفلا تُشرى الجنة بثمنها؟

وفي الساعة التي يقطع فيها الإنسان عراه الفانية، أفلا تتجلى له اللانهاية آنذاك." [205]

[205] أنظر روائع في المسرح والشعر، رابندرانات طاغور.

ونجد في آثار **جبران** الأدبية والفلسفية رسالة واضحة للتمرد على العنف والعبودية ودعوة لتكريس المحبة بدل الحقد والأنانية. " إن الفطرة الأصلية للإنسان كما يراها جبران هي سليمة من الشر، صافية من الصراع صفاء الله منه؛ لأن الإنسان روح من الله مغروسة في الوجود؛ ولهذا كان صراع الخير والشر في تحديهما السائد لدى البشر بدعة ولدها النشاط البشري على الجوهرية الإنسانية التي هي خير وحسب. يقول جبران: " أستطيع أن أحدثكم عن الخير الذي فيكم لا عن الشر... أليس الشر هو بعينه الخير المتألم آلاماً مبرحة من تعطشه ومجاعته؟ أنت صالح يا صاح إذا كنت واحداً مع ذاتك". جبران يبرئ الإنسان الذي يقع ضحية شر ناتج عن تشابك العلاقات البشرية، لا عن التصميم الإرادي في اقتراف هذا الشر؛ لأن تداخل المصالح البشرية وتشابكها يجعل الخير يصدر عن الشر كما يجعل هذا الشر يصدر عن الخير؛ فتنقلب مقاييس القيم ليصبح الخير شراً والشر خيراً، وتضيع علينا بالتالي حقيقة كل منهما: "إن القتيل ليس بريئاً من جريمة القتل ... لا تستطيعون أن تضعوا حداً يفصل بين الأشرار والصالحين أو الأبرياء والمذنبين... وتكون عثرته (أي للشرير) توبيخاً للذين يسيرون أمامه بأقدام سريعة ثابتة لأنهم لم ينقلوا حجر العثار من طريقه" والجوهر الإنساني لجبران يرفض إدانة الخطأ باسم القانون لأن هذا القانون غالباً ما يُحكى بلسان فرد من طبقة اجتماعية معينة هي تسنه وفق مآربها الخاصة؛ وحتى لو لم يكن هذا القانون معبراً عن رغبات فئة معينة من فئة الأثرياء وأصحاب السلطة من ذوي ألقاب الشرف؛ فتنفيذه ينتج دائماً عن ظروف خارجية تحمل منفذه على ارتكاب الشر، ولو لم تكن له حيلة في تفاديه: "كذا يبتدع من المسكين سفاحاً باستمساكه، ومن أبن السلام قاتلاً بقساوته" وقال جبران أكثر من ذلك "أنتم

يا أحبائي الضعفاء شهداء شرائع الإنسان". فكلمات جبران هذه تشير إلى أن المرذولين من المجتمع بسبب شرورهم، والذين يدانون بالناموس هم الضعفاء وحدهم؛ وهم ينقادون بسبب ضعفهم إلى اقتراف هذه الآثام التي تحاربهم شريعة الأقوياء على أساسها. "[206]

ولا يمكن أن يتعارض فكر جبران مع حقيقة مسببات العنف، فالعنف مكبل وأشبه بالعدم، ولا يمكنه أن يتحرر ليبطش إلا إذا تركنا له العنان من خلال الشهوات والطمع والإذلال والخوف، تماماً كما ورد في ثنايا هذا البحث أمامنا.

هذه العودة إلى إنسانية الإنسان، إلى الصورة الخيرة التي أرادها الله من خلقه، تمنحنا شعوراً بالأمل والتفاؤل على إمكانية القضاء على الشر المتخفي في أعماق كل الناس، إذا تحرروا من البغضاء والتخاصم والأنانية.

" الخير في الناس مصنوع إذا جبروا ... والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا
وأكثر الناس آلات تحركها ... أصابع الدهر يوماً ثم تنكسر
فلا تقولن هذا عالم علم ... ولا تقولن ذاك السيد الوقر
فأفضل الناس قطعان يسير بها ... صوت الرعاة ومن لم يمشي يندثر
والعدل في الأرض يُبكي الجن لو سمعوا ... به ويستضحكُ الأموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين إن صَغُروا ... والمجد والفخر والإثراء إن كبُروا
فسارق الزهر مذموم ومحتقَرٌ ... وسارق الحقل يدعى الباسل الخطرُ
وقاتل الجسم مقتول بفعلته ... وقاتل الروح لا تدري به البشرُ" [207]

[206] جدلية العلاقة بين الفلسفة والأدب، راجع ص 128- 130- 131.

[207] المجموعة الكاملة لجبران، المواكب.

لم تكن ثورة جبران ضد العنف ثورة عادية، بل كانت مندفعة تحركها المعاناة. فالعنف هو عنف الأقوياء على الضعفاء، وكانت معظم أقواله تؤكد على ذلك؛ فالرجل الفقير الذي سلب بعض الطعام من الدير قُبض عليه وقيل أنه شرير، وعندما حكم عليه الأمير بالموت شنقاً قيل عن الأمير هذا أمير فاضل؛ وإذا كان سفك الدماء من المحرمات فمن حلله للأمير، وإذا كان سلب الأموال جريمة فمن جعل من سلب الأرواح فضيلة؟. وهل يجوز أن نقابل الشر بشر أعظم، ونغالب الجريمة بجريمة أكبر، ونقول هذا هو العدل. " وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: "أحرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحد السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟" [208]

وبحسرة بالغة يعبر **أبو العلاء المعري** عن الأسف والألم لرؤية الشر مستفحلاً بين بني البشر؛ وقد ترك ما كان في عصره من فوضى وظلم، أثراً كبيراً في أشعاره؛ وهذه العبقرية الممزوجة بالحزن لدى المعري جعلته يجزم بأن الناس كلهم أشرار. وكان يتمنى الموت على هذا الواقع الكئيب فقال:

" فليت وليد مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء
على الوليد يجني والد ولو أنهم ولاة على أمصارهم خطباء."

وهو لم يتهم غيره ليبرر نفسه، فالشر موجود عند الجميع وكذلك العيوب والأخطاء:

" إن مازت الناس أخلاق يعاش بها فإنهم عند سؤ الطبع أسواء
أو كان كل بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت حواء

بني الدهر مهلاً إن ذممت فعالكم فإني بنفسي لا محالة أبدأ
بني حواء كيف الأمن منكم ولم يؤهل بغير الحقد روع"

[208] المجموعة الكاملة لجبران، صراخ القبور.

العقل عند أبو العلاء هو وحده المعصوم، ولا يجوز الأخذ بما يُقال فما لخبر أن يصدق دون قياس عقلي، وكل الأخطاء التي يرتكبها الإنسان لا تعود في أصلها إلى طبيعة العقل بل يعود إلى طبيعة الغريزة والشهوات، وحتى العقل قد يخطئ لأنه غير منفصل عن الحياة المادية، ولهذا تختلف أحكام العقل بين الناس، ولكن المعرفة الأكيدة والثقة التامة هي الثقة باللّه وحده:

" فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

أنكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى بإكرام وتصديق!" [209]

ويا ليت كل الناس تستمع لصوت العقل وتدفع بالغرائز جانباً لربما استطعنا أن نحقق ما نصبو إليه من أمان وسلام ومحبة.

[209] أنظر جدلية العلاقة بن الفلسفة والأدب، أبو العلاء المعري.